

2003

## توسديد والتاريخ من خلال مؤلفه "الحرب البيلبونيزية"

عبد السلام التايب

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [Comparative Literature Commons](#), and the [History Commons](#)

---

### Recommended Citation

"التايب, عبد السلام (2003) "توسديد والتاريخ من خلال مؤلفه "الحرب البيلبونيزية" *Dirassat*. Vol. 11 , Article 15.  
Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol11/iss11/15>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact [rakan@aarj.edu.jo](mailto:rakan@aarj.edu.jo), [marah@aarj.edu.jo](mailto:marah@aarj.edu.jo), [u.murad@aarj.edu.jo](mailto:u.murad@aarj.edu.jo).

## توسديد والتاريخ من خلال مؤلفه "الحرب البيلبونيزية"

ذ.عبد السلام التايب

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير

تجدر الإشارة إلى أن مؤلفات كبار المسرحيين الإغريق أمثال : Aristophane وEuripide، لا يمكن فهمها إلا على ضوء ميلاد وتطور التيار العقلاني الذي شكلت بلاد اليونان مسرحا له: وقد تألق هذا التيار على وجه الخصوص في مدينة أثينا، التي أصبحت بحكم قوتها وحسن وفادتها، أكثر مركز ثقافي لمجموع بلاد اليونان.

ففي البداية كانت عدة أنشطة ثقافية جديدة تمارس خارج مدينة أثينا، لكن منذ النصف الثاني من القرن الخامس ق.م، أصبح عدة فلاسفة وسفسطائيين وأدباء ومفكرين ضيوفا بها حيث سيكون لهم - في أثينا بالخصوص - الأثر البالغ. فالطب كتخصص علمي قد ولد في القرن الخامس ق.م، لكن تطوره سيتم خارج أثينا حيث مؤسس هذا التخصص Hippocrate الذي ينتمي إلى مدينة Cos بالبحر الإيجي قرب آسيا الصغرى. لكن إذا كانت أثينا لم تساهم مباشرة في هذا المجهود فإن تأثيرها في ميدان الأدب كان عميقا على عطاء بعض المفكرين: فإنتاج توسديد على وجه الخصوص قد استوحى روحه من ذلك التأثير الأدبي الكبير، ليس فقط كما وصف المؤرخ وباء الطاعون الذي حل ببلاد اليونان من جراء الحرب البيلبونيزية، ولكن عند تحليله للأحداث السياسية بكامل الموضوعية، وحرصه الكبير على فهم دلالات الفساد السياسي الذي عانت من ويلاته بلاد اليونان برمتها.

ففي الوقت الذي ازدهر فيه فن الكلام والنقاش مع السفسطائيين، أصبح الطب أكثر علمية وعقلانية، نجد توسديد بأثينا يبذل كل جهده لإدخال تلك المتطلبات الفكرية في كتابته للتاريخ مجددا بذلك المجال الفكري الذي أرسى قواعده الأولى المؤرخ هيرودوت.

والفرق الموجود بين المؤرخين يفسر بكون توسديد عاش وتكون في آثينا حيث كانت تحتل السياسة مركز الصدارة وحيث وصلت المدينة قمة تطورها وقوتها، لهذا، فإذا كان تاريخ هيرودوت يهتم بالإثنوغرافيا والدين والروايات، فتاريخ توسديد كان بالجملة سياسيا. وأيضا إذا كان إنتاج هيرودوت يختار كموضوع له الحديث عن الإغريق والفرس، فإن إنتاج توسديد مركز بالأساس على الحرب البيلبونيكية التي دارت بين اسبارطا وآثينا وعاش المؤلف كل تقلباتها وتغيراتها، مما جعل التجربة الأثينية تغني وتوسع من أفق عمل توسديد. هذه الخصائص تدخلت حتى في اختيار موضوع الكتاب: فالحرب البيلبونيكية، قد شددت إليها اهتمام المؤرخ حيث أصبح بالإمكان القيام، ببحث مباشر أو انتقاد منهجي ومنسق بصدد ما جد من أحداث ووقائع.

### 1. حياة توسديد :

لا نتوفر عن حياة توسديد إلا على معلومات قليلة نستنبطها من قراءتنا لمؤلفه الكبير "الحرب البيلبونيكية"، الذي يفيدنا على الأقل بأنه آثيني الأصل وبأنه عند اندلاع الحرب كان في سن الشباب<sup>(1)</sup>، كما أنه من جهة أخرى كان قائدا أعلى للحربية (Stratège) سنة 424 ق.م، و مولده قد يكون ما بين سنتي 465 و 460 ق.م واسم أبيه هو Orolos، كما كانت له علاقة قرابة مع أسرتي Militiade و Cimon المشهورتين وكذا مع عائلات أخرى تقطن منطقة طراس Thrace.

وفي الفترة الأولى من حياته عاش توسديد تحت نظام دولة المدينة الأثينية، مما أتاح له الفرصة ليتكون فكريا تكوينا جديا، لقد كان من بين أساتذته Anoxagore وعدد من السفسطائيين مثل Gorgias و Prodicos المعروف أنه قرأ إنتاج هيرودوت الذي كان تأثيره بالغا في نفسه. المهم أنه منذ اندلاع الحرب البيلبونيكية قرر توسديد أن يؤرخ لها مسجلا أن "تاريخ الحرب بين البيلبونيكيين والآثينيين هو من عمل توسديد الآثيني، وشرع المؤلف في الكتابة منذ بدء الأحقاد والخلافات...<sup>(2)</sup>. إن السياسة قد استهوت أكثر من أي شيء آخر، ويمكننا التعرف على آرائه من خلال مدحه لديمقراطية

(1) توسديد، الحرب البيلبونيكية، الكتاب 5، فصل 26 فقرة 5.

(2) توسديد، المؤلف السابق، I.I.I.

بيريكليس<sup>(3)</sup> وحديثه عن الحكومة الائتلافية المكونة من الديمقراطيين والأوليغارشيين المعتدلين<sup>(4)</sup>.

وعندما هاجم الاسبارطيون مدن Chalcidique<sup>(5)</sup> أرسلت آثينا توسديد على رأس قوة عسكرية ضخمة، إلا أن عدم نجاحه في انقاد مدينة Amphipolis ترتب عنه الحكم عليه بالنفي. ولما كان في المهجر خصص كل وقته للحصول على معلومات وأخبار تهم كلا المعسكرين: "وبعد نفقي عشرين سنة عايشت مشاكل ومشاكل كلاً المعسكرين الشيء الذي أتاح لي الفرصة للتعرف عن قرب على كل مجريات الأحداث"<sup>(6)</sup>. هذه التجربة أفادت بشكل مباشر المؤرخ حيث كان لفشله العسكري تأثيراً إيجابياً وغير مباشر على عمله التاريخي. لكن لا ندري هل عاد توسديد إلى آثينا بانتهاء الحرب، كما نجهل تاريخ وكيفية وفاته، مع العلم أنه ربما عاش بعد 404 ق.م بضع سنوات، كما نجهل طبيعة الظروف التي تمت فيها كتابة مؤلفه الذي يبدو أنه غير كامل، ذلك أنه كان من المفروض أن يستمر في سرد الأحداث حتى سنة 404 ق.م غير أنه توقف عند سنة 411 ق.م فمنذ الكتب الأولى نصادف إشارات تهم المرحلة الأخيرة من الحرب بل تهم الهزيمة النهائية لآثينا، مما يثبت أن توسديد قد جمع في البداية مجموع تقاييده ومدونات، لكنه لم يبدأ عملية التحرير بشكل عملي إلا بعد سنة 404 ق.م. إن توسديد يقدم لنا حكماً فريداً تميز به إذ رأى في الحرب وحدة واسترسالاً، في حين أن هذه الحرب توسطتها فترة سلم دامت زهاء ست سنوات، يدفع إلى الاعتقاد بأنه خلال فترة السلم هذه بدأ عملية تحرير المؤلف الذي سيصبح فيما بعد موضوعاً للتقحيح والتعديل والتصحيح، ومما يؤكد هذا الافتراض هو بعض الإشارات الجزئية داخل الكتاب، ولا يمكننا اليوم التمييز بين التحرير القديم وما تم إقحامه من تنقيح وتصحيح مستحدث، ذلك أن وحدة المؤلف - وإن كان هذا الأخير قد كتب على مراحل - تفرض على القارئ رؤية شمولية رائعة التماسك والترابط.

(3) نفسه، II، 65.

(4) نفسه، VIII، 97.

(5) هي المنطقة الفاصلة بين إقليمي مقدونيا وطراس شمال بلاد اليونان.

(6) توسديد، المؤلف السابق، V، 26.



## 2. إنتاج توسديد :

إن عمل توسديد الرئيسي يتمثل في كتابه "الحرب البيلبونيكية" التي دارت بين قطبي العالم الاغريقي: آثينا واسبارطا بين سنتين 431 و 404 ق.م وقد شملت هذه الحرب كل المدن اليونانية الأخرى التي وجدت نفسها مجبرة للدخول في هذا الصراع إلى جانب أحد المعسكرين. إلا أن مؤلف توسديد لم يتمم الحديث عن هذه الحرب حتى النهاية حيث توقف في سرد الوقائع والأحداث عند سنة 411 ق.م. والمؤلف الذي وصلنا يتكون من ثمانية كتب (هذا التقسيم ليس لتوسديد طبعا). خصص الكتاب الأول للتعريف بأسباب الحرب التي لم يبدأ الحديث عنها إلا مع بداية الكتاب الثاني ثم يتابع سرد الأحداث خلال العشر سنوات الأولى من الحرب إلى حدود صلح Nicias سنة 421 ق.م في كتابه الخامس. إلا أنه بعد بضعة سنوات من السلم سوف تستأنف الحرب من جديد. لذلك بعدما ذكر توسديد هذا السلم قدم تمهيدا ثانيا مؤكدا فيه بأن الأمر يتعلق بحرب فريدة من نوعها على الرغم من سنوات الهدنة هذه. بعد ذلك قدم الكتابين السادس والسابع ككل قائم بذاته بمقدمته وخاتمته، وقد خصصا للحديث عن الحملة الأثينية ضد صقلية بين سنتي 415 ق.م. و 413 ق.م.

من خلال هذه البنية نلاحظ أن هناك سمتين هامتين تثيران اهتمام وانتباه القارئ : السمة الأولى هي الموقع الذي احتلته الحملة على صقلية في المؤلف حيث تظهر هذه الحملة وكأنها حدث مستقل عن الحرب بين آثينا واسبارطا، لأن هذا الحدث في الواقع لم يؤد فقط إلى تجدد الصراع بين القوتين بل إلى كارثة لم تقم لآثينا بعدها قائمة فهذا التصرف التوسعي الخطير والمتهور أيضا انتهى بالنكبة والفشل الذريع، وهو ما يحاول توسديد ابرازه. والكتابان معا 6 و 7 كتبنا بكثير من العناية والدقة ويضمنان الكثير من الخطب المؤثرة غالبا، فهما متميزان عن بقية المؤلف إلى حد أن المؤرخين اعتبروا دراسة منوغرافية حقة. ان اتقان صياغتها يترجم الأهمية التي يوليها توسديد "للامبريالية الأثينية" وكذا للنهاية المأساوية لقوتها الضائعة أما السمة الثانية فتتجلى في القيمة الكبرى للكتاب 1 فتوسديد أراد من خلاله أن يفهم ويشرح أسباب الحرب. فبعد مقدمة مطولة توضح أهمية هذه الحرب التي اتخذها كموضوع لبحثه (للبهرنة على ذلك توغل توسديد في التاريخ إلى

ما قبل حرب طراودة<sup>(7)</sup> ثم بعد ذلك يعرض توسديد منهجه في الكتابة وابتداء من الفقرة 23 شرع في عرض الأسباب مميزا بين الذرائع مستشهدا بقضيتي Pot- و Corcyre idée، وبين ما سماه بالسبب الحقيقي قائلا: " في واقع الأمر ان السبب الحقيقي والخفي هو تقدم آثينا وتفوقها في جميع المستويات مما أدى إلى تخوفات أسبارطا وقلقها وبالتالي أجبرهما على الصراع والحرب<sup>(8)</sup> وهذا المستوى من التفسير أدى بتوسديد في بقية الكتاب إلى رسم الخطوط العريضة لتكوين الامبراطورية الآثنية منذ الحروب الميدية حتى اندلاع الحرب البيلونيزية.

أما بقية المؤلف فهو سرد للأحداث حسب السنوات بل حسب الفصول بدقة متناهية لكن دون أن يكون كتابا حوليا أو تاريخ الحوليات لأن توسديد كان يحذف وينظم ويركز الاهتمام على الأحداث الأساسية فقط.

ومن خلال هذه الأحداث يمكننا التمييز بين نوعين أساسيين من السرد :

1 . هناك أولا وقبل كل شيء سرد المعارك الحربية التي تهم توسديد باعتباره مارس في فترة من فترات الحرب القيادة العليا للجيش. وقد نجح المؤرخ في تحليل هذا الجانب تحليلًا متينًا ورصينا. ولأجل هذا عمد إلى استعراض الخطة المتبعة من طرف قادة الجيش سواء في المعسكر الآثيني أو في المعسكر الخصم. وقد اجتهد المؤرخ لتكون براهينهم وحججهم عند استعراضها تتجاوز وتتكامل فيما بينها، كما حاول من جهة أخرى أن يكون سرده للأحداث في علاقة متناهية مع خططهم، ويكشف في نفس الوقت القوة والضعف لدى المعسكرين. ومن أهم المعارك التي تعرض لها توسديد هناك معركتان بحريتان ( Nopacte و Patrai ) ضمهما الكتاب 2، أو الحروب التي دارت في صقلية اثر الحملة الآثينية (انظر الكتابين 6 و 7).

2. وإلى جانب المعارك نلاحظ ثانيا أن توسديد يخصص حيزا مهما للمفاوضات التي غالبا ما تنتهي إما بالتحالفات أو بالإرتدادات. وإذا كان سرده للاصطدامات العسكرية البحرية يظهر بوضوح التفوق البحري لآثينا التي كانت لها الهيمنة على البحر

(7) نفسه، 1، 3.

(8) نفسه، 1، 23، 6.

الايجي، فإنه بالعكس من ذلك ففي المفاوضات السياسية يكشف عن مظاهر الضعف التي كانت ملازمة لامبراطوريتها مما كان يفقدها شعبيتها وبالتالي تثار ضدها عداوة وكراهية الحلفاء.

كما نلمس في أغلبية التحاليل الخط الذي نهجه توسديد عند حديثه عن الحملة ضد صقلية ووضعها في إطارها الحقيقي : فتفكير توسديد دائما مركز على امبراطورية آثينا وكذا على المشاكل المترتبة عن القوة والهيمنة (9).

وقد اجتهد توسديد كثيرا في بحثه وتحليله لأسباب هذا الوضع من خلال طموحات و سياسة بيريكليس نفسه. فابتداء من الكتاب 1 نقف أمام نظرية متكاملة حول الوسائل و الامكانيات اللامحدودة والمرتبطة بضرورة السيطرة والهيمنة على البحر. وفي الكتاب 2 قدم توسديد . على لسان بيريكليس . ثناء على آثينا وامبراطوريتها(10) ، لكنه يحذر أيضا الآثينيين من المخاطر التي قد تتجم عن ضغينة وعداوة الاتباع. فتقريبا كل المراحل التي تطرق إليها توسديد وحاول قدر الإمكان توجيه انتباه القارئ إليها، هي إلى حد كبير مرتبطة ارتباطا وطيدا بهذه المشكلة.

وفي نفس الكتاب عبر بيريكليس عن قلقه عندما ضغط على الشعب الآثيني ليقبل مخططة الدفاعي (وهذا ينسجم وطبيعة القوة الآثينية) هذا الأخير إما أنه يتحمس ويندفع فيكسب النصر أو تخمد عزيمته فيفشل وينهزم ولكن مع ذلك فإن التفوق البحري الآثيني سيتأكد في موقعه Patrai.

أما الكتاب III فهو يتوزع أساسا بين أحداث Platée و Mitylène ف Platée هي المدينة المخلصة لآثينا، إلا أن مصيرها سيكون مأساويا ومحزنا. أما Mitylène فهي المدينة الثائرة التي اجبرت آثينا على ضرورة طرح قضية القمع والزجر (يتجلى ذلك أساسا من خلال خطاب Cléon و Diodote). ويضاف إلى هذه الأحداث استعراض للحرب الأهلية المرعبة والعنيفة التي قامت بين الديمقراطيين وخصومهم الأوليغارشيين بمدينة Corcyre.

وفي الكتاب IV أشار توسديد إلى حدث Pylos الذي كاد أن يؤدي إلى ايقاف

(9) J.de Ramilly, Thucydide et l'impérialisme athénien, Paris, 1947, p.140.

(10) توسديد، الحرب البيلبونيزية، I,II, 35-46 حيث قدم توسديد خطبا القاه بيريكليس، يرثي فيه قتلى الحرب الآثينية في السنة الأولى من اندلاعها.



الحرب لولا رفض الآثينيين للسلم، كما تحدث الكتاب عن صقلية وذكر قوة المعارضة والمقاومة ضد آثينا، لتنفجر في نهاية الكتاب شرارة سياسة اللاكوني (11) Brasidas المبنية على أساس فصل آثينا عن حلفائها، (12) وبالتالي تفكيك قوة الامبراطورية البحرية التي تتزعمها آثينا. وهكذا فإن التخوف الناجم عن تمردات الحلفاء أجبر آثينا على عقد معاهدة الصلح مع اسبارطا سنة 421 ق.م. إلا أن الطموحات التوسعية لآثينا بصقلية قد أعطت لمسألة "الإمبريالية" و التوسع حدة جديدة وانطلاقة جد خطيرة.

هذا وقبل الكتابين الخاصين بالقضية الصقلية نجد توسديد يدخل في مؤلفه حوارا عجيبا بين الآثينيين وبين سكان Mélos (13) هذا الحوار ينتهي بانتهاء الكتاب الخامس الذي يعد الوحيد داخل المؤلف الذي يطرح كل مظاهر القوة وعلاقتها ببعض الأفكار اللاأخلاقية أو الدينية التي تؤيدها أو تهاجمها، وكذا الظروف التي جعلتها في نفس الوقت ضرورية على المدى القريب ولكن خطيرة بالنسبة للمستقبل.

فوجهة النظر هذه المعطاة للتاريخ تتم فعلا عن وجود تفكير سياسي عميق، وفي نفس الوقت تظهر بأن المغامرة بين الدولتين المتحاربتين هي في الحقيقة مغامرة فكرية حيث تكتشف بالتدريج فلسفة حقيقية للقوة.

وتصور كهذا للتاريخ يتضمن طبعا نظرة فريدة للحقيقة التاريخية.

## منهجه التاريخي :

### 1. الحقيقة التاريخية :

قال توسديد عن أحداث الحرب : "...لم أتصور نفسي أنني كنت ملزما بحكايتها وسردها، فقط بالاعتماد على أخبار القادم الأول من الحروب أو على رأيي الشخصي، بل لأنني عايشة أنا أيضا بعض تلك الأحداث أو بحثت في كل شخص من هذا المعسكر أو

(11) هو أحد القادة العسكريين الاسبارطيين، شارك في عدة معارك ضد القوات الآثينية خلال حرب البيلونيز، عمل على تفكيك أوصال الامبراطورية البحرية الآثينية. حارب Cléon بإقليم Chalcidique، لكنه قتل هناك ودفن بمدينة Amphipolis

(12) توسديد، المؤلف السابق، 3IV، 120-121 .

(13) وهي جزيرة صغيرة محايدة دخلها الآثينيون لاختضاعها حيث كانوا في حاجة لابراز قوتهم.



ذاك بكل دقة ممكنة : وقد واجهت صعوبات كبيرة في عملية بناء تلك الأخبار والمعلومات، لأن شهود كل حدث يقدمون روايات مختلفة ومتضاربة وذلك حسب تعاطفهم مع هؤلاء أو مع أولئك من جهة أو اعتمادا على ذاكرتهم من جهة أخرى...<sup>(14)</sup>. وهكذا يتجلى لنا بوضوح أن بحثا كهذا لا يمكنه أن يتم بدون صعوبة أو بدون يقظة وتنبه دائمين. والصعوبة تتضخم أكثر عندما يتعلق الأمر بالماضي وتوسديد عند عودته إلى الوراء زمنيا كما فعل في كتابه 1 (الاركيولوجيا) بذل في خدمة هذا البحث جهدا فكريا متميزا، إذ رفض الرجوع الى هوميروس مباشرة، إلا أنه كان ينتقي من حين لآخر بعض الأدلة والبراهين التي تحملها أشعاره حول أوضاع تلك الفترة القديمة، وكان يمزج تلك الأدلة بملاحظاته الخاصة ذات الطابع الأثري أو بعض المقارنات مع تطور الشعوب الأخرى.

وباختصار فقد كرس عمله للبرهنة العقلية التي تشكل جزءا من التفكير العقلاني والبرهنة المنطقية التي اشتهر بها السفسطائيون. في حين بالنسبة للوقائع الحديثة زمنيا كانت تلك المصاعب تقل وتخف حدتها، مما ضمن لتوسديد التوصل إلى نتائج أقرب الى الحقيقة دون عناء كبير.

وأهم خاصية تميز كتابة توسديد تتجلى في احترامه لسياق الأحداث الذي يبدو في مجموع المؤلف باستثناء بعض الفقرات فهو لا يتدخل باسمه الشخصي بل يترك الأحداث تتكلم عن نفسها محترما تسلسلها وترابطها الزمني ويختفي المؤرخ وراء رواية تظهر بمظهر الموضوعية.

كما أن طريقة تناوله للخطابات . التي تختلف ومناهجنا الحديثة . تتناسب وتتطابق . بدون شك ولو جزئيا . ورغبته هذه في الموضوعية . فعند أول قراءة يبدو لنا هذا الاستعمال أقل موضوعية لأن توسديد يريد التظاهر بعدم الإشارة إلى الفحوى والمضمون الدقيقين لتلك الخطابات، يقول توسديد في هذا المضمون: "...أريد التعبير حسب رأيي عن الخطابات التي تجاوزت أحسن تجاوب وأفضله مع وضعية أو ظرفية ما، واحتفظ لنفسني بموقع قريب قدر الامكان . من تلك الكلمات والألفاظ المعبر عنها

(14) توسديد، المؤلف السابق، 1، 22، 5.

(15) توسديد، المؤلف السابق، 1، 22، 1.

فعلا<sup>(15)</sup> والحالة هذه وابتداء من هذه المرحلة حيث يتوجب على المؤرخ إعادة بناء الأحداث، يبدو له أكثر اعتدالا وحيادا الاقتصار على تقديم شروحات حول تلك الأحداث، وملابساتها عبر السنة الزعماء والقادة السياسيين منهم والعسكريين، حيث نتبع بشكل مباشر العبارات والأحكام والقرارات بدون وساطة وكأننا أمام مشهد من المشاهد المسرحية.

في حين أصبح في حكم اليقين الآن، أن استعمال الخطابات في حد ذاته يستجيب عند توسديد لمتطلب يتجاوز تلك الموضوعية البسيطة. كما أنه يميز في أسباب الحرب ما بين الخلافات والحوادث العرضية "و بين "السبب الحقيقي". كما أن المؤرخ يريد دائما تجاوز التدقيق البسيط ليصيب صميم الحقيقة وعمقها. فما يبحث عنه هو المعنى الحقيقي للأحداث وكذا سر ومغزى ترابطها وتسلسلها. ولأجل هذا فإن المؤرخ يختار ويحذف ويرسم بنية خاصة ليصل في نهاية المطاف الى مغزى أو معنى عام وشامل.

ومن جهة أخرى لا يمكننا قول الكثير عما رفض توسديد التحدث عنه في مؤلفه : فهو لا يقصي فقط ما ثبت لديه بطلانه وزيفه، ولكن أيضا كل ما ليس مجديا ومفيدا في نظره. ومن ثم فلا نجد في تاريخه حديثا عن الكهنة أو عن الوحي الإلهي مع غياب ورود الأساطير والطرائف. لا نعثر أيضا في مؤلفه على أي وصف بدون فائدة أو الأوصاف التي تصور بعض الأشخاص. فكل ما يبتعد عن السرد الدقيق للأحداث والوقائع فهو غير حاضر في هذا المؤلف. لذلك يقوم المؤرخ توسديد بعملية الحذف والتشذيب : فلكي يبرز أهمية ما يراه جوهريا تراه يمرر الحديث عن الباقي بشكل هادئ. فالبنسبة إليه يكون السبب الحقيقي للحرب هو التفوق الذي عرفته القوة البحرية الآثينية أما مجموعة الحوادث الأخرى فتبقى ثانوية ولأجل هذا الغرض نلاحظ توسديد يرفض الوقوف عند حادث Mégare الذي اعتبره البعض كمصدر للحرب، مكتفيا بإشارة عابرة عنه فقط. كما أنه أقصى كل ما كان يروج حول أخطاء بيريكليس وزوجته Aspasia بشأن خزينة حلف ديلوس Délos، وفي كل فصل من فصول مؤلفه كان توسديد يطبق نفس الطريقة ويتبع نفس المنهج.

فمن خلال المؤلف نرى توسديد يجتهد دائما في التمييز بين العناصر الأساسية

لأي حدث حاصل، وتجميعها وتنظيمها بشكل يجعلها تعبر ليس فقط عن معنى ومغزى ذلك الحدث ولكن عن مغزى أحداث أخرى مشابهة له، حيث يؤكد ذلك قائلًا: "إذا رأينا بوضوح في الأحداث الماضية والأحداث المستقبلية تشابها بل تطابقا، حينئذ نحكم عليها بأنها أساسية ومفيدة، وهذا فيه الكفاية: فتلك الأحداث بمجموعها تشكل ثروة أبدية أكثر منها إنتاجا لتعظيم جمع من المستمعين في ظرف محدد"<sup>(16)</sup> وباختصار فإن توسديد الذي أدرك وعاش وباء الطاعون الذي تفشي بآثينا مع اندلاع الحرب، قام بوصفه بشكل دقيق حتى يُمكن الذين سيعايشونه في المستقبل "من الاستفادة من معرفة مسبقه له حتى لا يجدوا أنفسهم أمام ظاهرة غريبة"<sup>(17)</sup> وبنفس الدقة تناول توسديد أيضا موضوع الحرب البيلبونيزية، وبنفس الحافز، ألا وهو البلوغ الى معرفة دائمة ومستمرة تصل إلى مستوى العالمية.

وعلى الرغم من تسلحه بسلاح الحذر والحيطة كي لا يأتي بأحكام ونتائج نهائية وعلى الرغم أيضا من إقراره بتعقد الأحداث، فإنه مع ذلك قد سطر تفكيراً سياسياً عميقاً وحقيقياً في مؤلفه. ولعل اهتمام مفكري القرون المختلفة بمؤلفه يبرز - على الأقل جزئياً - مدى وفاء توسديد لهذه المراهنة، وقد يبدو أكثر جرأة أن نتساءل عن الفلسفة التي انضوى تحتها هذا المؤلف وكذا الوسائل والتقنيات التي استخدمها المؤرخ.

## 2. فلسفة التاريخ عند توسديد :

إن محاولة توسديد تفرض وجود عنصر ما دائم ومستمر في الطبيعة البشرية، بل يشكل جزءاً لا يتجزأ منها، وتؤكد هذه الفكرة بعض الإشارات التي أوردها من حين لآخر<sup>(18)</sup>. فهذه الطبيعة البشرية عندما يعرضها المؤرخ في مؤلفه، تبدو وكأنها نابعة عن انفعالات توقع الإنسان في الأخطاء بجعله يطمع في المزيد فتسقطه بالتالي في الفشل الذريع. وفي هذا الباب يعتبر عدم تبصر الآثيين وتهورهم ثم زيغ الاتباع الثائرين خير مثال يعكس سيطرة الغريزة على الطبيعة البشرية في اتخاذ القرارات الحاسمة وما ينجم عن ذلك من انعكاسات سلبية على مصير الإنسان. هذه النزعات أو

(16) توسديد، نفسه، 22، 1.

(17) توسديد، نفسه، 48، 2.

(18) توسديد نفسه المؤلف، 82، 3.



الميولات العمياء تشكل نوعاً من الثوابت في المؤلف كما يظهر ذلك من خلال عدد من الخطابات التي أوردها توسديد مثل: "...كما اعتادت العامة القيام به..." وكما يحصل غالباً بمحض الصدفة..." و"كما يحصل للأشخاص الذين يعيشون على الغريزة.." فهذه الصيغ والتعابير تمثل في نفس الوقت أساس تشاؤم المؤرخ المعنوي والروحي من جهة وصحة ودقة تحاليله من جهة أخرى.

فتوسديد لا يظهر انبهاره ولا يقدم أفكاراً وهمية حول شخصيات مؤلفه: والخطباء الذين اعتمد عليهم توسديد لم يتوقفوا أبداً عن توضيح بطلان الادعاءات والشعارات المغرضة المرفوعة من طرف خصومهم. وكيف لنا ألا نندهش حين نرى المؤرخ وهو يكشف في تحليل واحد، مصائب الحرب الأهلية (19) والأعمال الوحشية التي اقترفت إبانها وكذا الانقلابات السياسية التي همت مجموع التراب اليوناني، وغياب أي هم لدى الغزاة المحتلين (20) فالأقوياء يفرضون إرادتهم بكل ما لديهم من قوة في حين أن الضعفاء ما عليهم إلا الخضوع للأمر الواقع.

ويمكننا أن نلاحظ كذلك غياب الآلهة في عالم توسديد الذي قد يكون مؤمناً وتقياً، وهذا ما نجعله، لكن لا شك أنه على عكس الشاعر Eschyle وكذا المؤرخ هيرودوت نفسه، لم يكن مؤمناً بأن للآلهة دور فاعل في التاريخ سواء لمعاقبة المذنبين أو لحماية الأبرياء وغيابهم طبعاً يزيد الصورة قتامة وسواداً.

غير أن هذا لا يشكل إلا وجهاً واحداً لهذه اللوحة، إذا أصبحت هذه الميولات و النزعات الخاصة بالطبيعة البشرية معروفة لدينا، فلأن خطباء توسديد طرحوها ووضحوها في خطاباتهم، وحينما ذكرها هؤلاء كانوا في نفس الوقت يتنبؤون بعواقبها الوخيمة على خصومهم كما أنهم كانوا يدعون مواطنيهم للابتعاد عنها والاحتباس من الوقوع في شراكها. وبتعبير آخر كان هؤلاء الخطباء يلعبون دور الموجه والمرشد لاكتساب سلوك عقلاني وفعال خاصة وأن الإغراء المادي يشكل نقطة ضعف الإنسان إلا أن معرفة سلبياته (أي الإغراء) تمثل قوة ذكائه. هذا فضلاً عن أن توسديد نفسه يخبرنا بتلك الإغراءات والعادات التي تفتقر إلى المنطق والحكمة. يقوم المؤرخ بكل هذا

(19) توسديد نفسه المؤلف، 83، 3، وما بعدها.

(20) توسديد نفسه المؤلف، 85، 7، وما بعدها.



فقط لمساعدة القارئ على "الرؤية الواضحة" ولكي يستفيد الانسان في تصرفاته مستقبلا من التجربة الماضية، هكذا نكتشف بأنه على مر التاريخ يوجد الى جانب هذا الانجذاب الأعمى والميول الغير المنضبط، حضور ثابت ومستمر للحكمة التي تعرف كيف تقيس الأمور وتتنبأ بالمستقبل، وهكذا فإن المؤرخ يحاول من وراء كل واقعة ابراز هذا التعارض القائم بين الميولات النفسية الفطرية وما بين الحكمة والعقل، وما بين النزوات الغير المنضبطة، وبين الصفاء والصحو الذي في إطاره يتمكن الإنسان من اتخاذ التدابير والقرارات الصائبة مسبقا. فالقائد الممتاز هو الذي يتنبأ بالمستقبل بدقة، وتوسديد يمنح هذه الخاصية لـ Thémistocle<sup>(21)</sup> وكذلك Périclès<sup>(22)</sup> دون أن يتوقف عن ذكر وتبيان فعالية وجدوى فن التنبؤ في ميدان القيادة سواء السياسية أو العسكرية، لذلك يورد قبل الفعل الخطابات التي من خلالها يحلل القادة ما ينتظر وقوعه، يلي ذلك سرد الرواية الذي يثبت صحة تكهناتهم. فالخطة الحربية التي طالب بيريكليس اتباعها تستند إلى حساب دقيق، ومختلف خطابهات تمثل أدلة كافية تثبت أن آثينا لو تبنت تلك الخطة لخرجت من الحرب منتصرة. و حتى بالنسبة للمعارك فإن القادة العسكريين يحلون الوضعية فيستخلصون إما أسباب تبنيهم خطة ما (تستند على تكهن رد فعل الخصم) أو المبررات الكافية والمقنعة لحسم الانتصار، أما القائد الغير المناسب فهو الذي لا يعرف كيف يقيس قيمة بعض القضايا التي تهم مصير الدولة، فيكون المستفيد الأول هو الخصم، وخير دليل على ذلك هو Cléon الآثيني الذي خلف Périclès على رأس الحكومة والذي لم يكن توسديد متعاطفا معه حيث يصفه بالعناد وسوء التدبير وافتقاره لفن التنبؤ وكيف أن خصمه الاسبارطي Brasidas يوضح في خطابه الموجه إلى جنوده كيف يستفيد من أخطاء Cléon ويستعمل بعض العبارات مثل "سأشرح لكم" وأتكهن ب.. و " إذن فمن المنتظر أن يقع..."، وطبعاً فإن رواية الأحداث تجعل من Brasidas القائد المحنك الذي يتنبأ بالمستقبل دون أن يخطئ.

(21) توسديد، نفس المؤلف ن 138،I، حيث وصفه بالقوة والذكاء وتمتعه بتقدير الجميع وأنه اقهر مواهب طبيعية لا جدال فيها ومن ثمن فهو شخصية متميزة. كما بفضل فكره الثاقب وبصره النافذ كان قادرا على إيجاد أفضل الحلول لا صعب القضايا، وعلى التكهّن الذكي للمستقبل البعيد.

(22) نفس المؤلف، 65 2، أكد توسديد بأن الشعب كان يرى فيه أفضل رجل للدفاع عن الصالح العام، وأن في عهده أيام السلم بلغت آثينا قمة مجدها، وعند اندلاع الحرب كان يدرك الأسباب التي تضمن قوة المدينة، وبعد وفاته مباشرة فهم المواطنون ذكاء خطته وبعد نظره.

بالنسبة لتوسديد، فإن الانسان يملك إمكانية التحكم في الأحداث بل وحتى الفشل يصبح درساً للعبرة والاستفادة يؤدي إلى الارتقاء والتطور، لذا نجد عدداً من المؤرخين - وهم يقرؤون توسديد - يتأثرون بالإخفاقات والاحباطات التي تقف في وجه المنطق والحكمة، مثل المؤرخ Stahl ومنهم من تأثر بالنجاحات والانتصارات التي حققتها تلك الحكمة مثل المؤرخة المشهورة J.de Romilly<sup>(23)</sup> وتوسديد يفسر هذا النزاع القائم بصراع ذي صبغة معنوية أخلاقية وفكرية دون أن يخرج كمادته بأية خلاصة لكنه يجعل من القارئ حكماً على ذلك الخلاف. وعلى كل فإن تشاؤم توسديد قد وجد في تعظيم المعرفة المنطقية أهم وأكثر تعويض له، وإنتاجه يستوحي قوته ويستمد روحه من عهد يمثل أزهى عهود تاريخ أثينا التي اكتشفت فيه وسائل وامكانيات غير محدودة للحكمة والفكر العقلاني.

وأخيراً نضيف أنه حتى بالنسبة لسير الأحداث يقدم توسديد، الى جانب الصور القاتمة واللحظات المؤلمة، صورة النجاح المتألق فعلى الرغم من أن أثينا تظهر بمظهر الغازية والمحتلة العنيفة (وهو ما أخذها عليه بعض المفكرين أمثال Aristophane، فإن الخطاب الذي ألقاه بيريكليس (في الكتاب 2) يرثي فيه قتلى الحرب الآثينيين، يقدمها بمجدها الرائع وهيبتها المعهودة وبمستواها الحضاري المتألق الفاضل. وتوسديد لم يكن مجبراً على أقحام خطاب كهذا في مؤلفه : لكن بإدخاله يكون توسديد قد صحح الصورة النهائية، تلك الصورة التي ظل بيريكليس يثيرها من حين لآخر قائلاً : "ستحتفظ الذاكرة بهذا المجد الى الأبد..." أو بأن "هذا التألق الذي نعيشه الآن، مع المجد بالنسبة للمستقبل سيظل منقوشاً على الدوام في ذاكرة الأجيال القادمة..."<sup>(24)</sup> ومن جهة أخرى فعلى الرغم من أن تحليل توسديد كان قاسياً فإنه يظل مضيئاً بصدى كل ما جعل من أثينا مدينة العز والافتخار في عصرها الذهبي.

### 3. فن الكتابة عند توسديد :

إن كتابة التاريخ عند توسديد تُبنى كما لو أننا أمام رسم تم تهيئته وتمحيصه بعناية متناهية، فالخطابات وضعت في علاقة دقيقة مع رواية الأحداث فيما بينها أيضاً.

(23) هذا التأثير يبدو واضحاً في كتابها القيم : "HISTOIRE ET RAISON CHEZ THUCYDIDE" Paris, 1956.

(24) توسديد، نفس المؤلف، 64.2.

والنموذج العادي لذلك هو وضع خطابيين متعارضين حتى في التفاصيل البسيطة يمكننا من رؤية وجهين مختلفين لقضية واحدة. غير أن هذا الفن الذي يعتمد على مقابلة ومواجهة البراهين فيما بينها وكذا تغييرها وعكسها، يطابق بدون شك تعاليم السفسطائيين، فمثلا كان : Protagoras متخصصا في تلقين فن إظهار قوة الأطروحة الضعيفة الهشة، بمعنى آخر أن السفسطائي كان يلجأ الى مواجهة الخصم مستعملا نفس حججه وبراهينه في الدفاع عن قضية ما، وهو الأسلوب الذي نهجه خطباء توسديد في مؤلفه : الكورسيويون ضد الكورانتيين، والبلاتيون ضد الطيبين، وأيضا Cléon ضد Diodote و Alcidiade ضد Nicias إلى غير ذلك من النماذج. لكن ما كان لدى الخطباء . وهم تلامذة السفسطائيين . عبارة عن مهارة وحذق، أصبح عند توسديد كوسيلة للتحاليل واكتشاف الحقيقة، لأن في قضية واحدة تجادل فيها عدد من الخطباء المتعارضين، تمكن القارئ من قياس سلبيات وإيجابيات كل حالة على حدة فيستطيع بالتالي الإحاطة بأفضل التدابير وكذا بما وقع فيه كل جانب من أخطاء ومن الثائبة في التحاليل يبرز منهج معقد ومتكامل في الكتابة التاريخية عند توسديد .

لكن في نفس الوقت فإن توسديد . كي يضفي صبغة القوة والتماسك على تحاليله . لم يغفل أي عنصر من عناصر الأسلوب السفسطائي في الكتابة كي يصبح الفكر أكثر رسوخا وثباتا . على الأقل بالنسبة للخطابات. فنصادف في مؤلفه مفردات وألفاظا شعرية أصبحت أقل تداولاً وقد تثير الانتباه، كما يمكن أن نصادف أسلوب التضاد، وهي كلها مميزات اشتهر بها السفسطائي Gorgias، كما قد نصادف أيضا تمييزه للمفردات وهو ما اشتهر به Prodicos وغالبا في التضاد والتعارض تكون الغاية منهما هي تثبيت وترسيخ أحكام توسديد ومواقفه لدى القارئ حول قضية معينة، والصورتان المتعارضتان<sup>(25)</sup> اللتان قدمهما سفراء Corinthe . وهم يخاطبون الاسبارطيين . الأولى تطابق أحوال الاثينيين والأخرى تناسب اللاسيديمونيين، يمكننا اعتبارهما خير مثال لتزكية هذه الفكرة. يضاف الى كل هذا أن رغبة توسديد في التعميم تؤدي به إلى الاكثار من المفردات المجردة وأسماء المعاني ومن صيغ المصدر وأسماء الفاعل والمفعول وغيرها من العناصر المتعلقة بأسلوب الكتابة.

هكذا فإن كل شيء . انطلقا من بنية فصول الرواية حتى أدق تفاصيل الأسلوب .

(25) توسديد، نفس المؤلف، 70.1.



إذا كان يعكس حركية ذكاء ثاقب ومجرد في نفس الوقت فسيكون من الخطأ إذا لم نعتبر هذا المؤلف ذا طبيعة فكرية وعلمية، وفعلًا فإن الاستنتاجات والاستدلالات والتقدير المَطروحة في المؤلف قد نسبت إلى الأبطال والزعماء الذين حركوا أحداث تاريخ توسديد : فهم قد عبروا عن تخوفاتهم وتطلعاتهم وعن مشاريعهم وتوقعاتهم. وقد عرف فعلاً توسديد كيف يفخم ويهول العواقب والنتائج المأساوية، فوصفه لوباء الطاعون الذي تفشى في آثينا ابتداءً من 430 ق.م. كان وصفاً حسياً للمرض لكنه أيضاً كان وصفاً لمأساة عانت المدينة من ويلاتها. كما أن وصفه للحروب الأهلية كان واضحاً وعميقاً لكنه ركز بقوة على الفرع والرعب اللذين خيما على جو المدينة، كما أن نكبة الحملة الاثنية ضد صقلية (413 ق.م) قد تم تفسير أسبابها استناداً على معطيات تقنية محضة، لكن إثارة جانب العواطف والشعور بالأسى والحزن كانت حاضرة هنا أيضاً حيث نستشفها من خلال شهادات عدد من الذين عايشوا وعايروا الكارثة (26)، أو من خلال الوصف المتناقض بين استبشار ومرح انطلاق الحملة وبين ارهاق العودة.

فتوسديد لم يكن معاصر للفسطاطيين والأطباء فحسب بل عايش أيضاً عدداً من الكوارث والنكبات، لكن تدمير القوة الاثينية مثل - بدون شك في نظره - أكبر مأساة وفاجعة عاشتها البشرية على الإطلاق، فتحطيم مختلف ركائز الاقتصاد الاثيني واختلال التوازن الاجتماعي القديم، ثم الاضطرابات في القيم الأخلاقية والفكرية التي أدت إلى أزمة في المؤسسات الاثينية لتتوج كل هذه الأزمات بتوالي النكبات على آثينا بين سنتي 413 و 404 ق.م، إذ على الرغم من عودة السلام وبناء الديمقراطية فإن حدة الأزمة العامة ظلت قائمة.

وختاماً فإن إنتاج توسديد الذي يعكس جيداً ثقة المؤرخ بنفسه، هو في حقيقة الأمر بمثابة محضر يثبت ويؤكد "احتضار" دولة مدينة إن صح هذا التعبير: فأثينا التي هي مدينة في انفتاحها وازدهارها وتفوقها في الحروب الميدانية ما كان عليها - في نظر توسديد - الدخول في صراع دموي جديد ضد جارتها اسبارطا في إطار الحرب البيلونيزية. لدى فإن المؤرخ المعاصر لا يملك في الحقيقة إلا أن يهنيء نفسه لحصوله على هذا الإنتاج النادر والمتميز الذي هو مؤلف " الحرب البيلونيزية" للمؤرخ توسديد، هذا الاثيني صاحب الذكاء والوقاد والفكر النافذ هو أول من فهم بأن الحرب ليس فقط ذلك الاصطدام العسكري بل بإمكانها أن تحدث أعماق التحولات والتغيرات

(26) توسديد، المؤلف نفسه، VII، 71.